

Quranic deviation: between aesthetic reception and stylistic function for metaphor metonymy in Surat El'Kahf

Dr. Louiza Houfaf ^{1*}

1:University Mohamed Boudiaf, (Algeria), santalouiza@yahoo.fr

Received : 05/08/2024 ,Published : 28/09/2024

ABSTRACT:

This research paper aims to highlight aspects of excellence and uniqueness in one of the artistic aspects of the Holy Quran. Which is considered as one of the stylistic features of the speech of Allah where it concerns deviation. Specifically, one of the types of deviation, which is semantic deviation, is represented in metaphor and metonymy, passing through phonetic deviation and lexical deviation. As well as deviation in structure or composition, reaching the subject of the study, which is the aesthetic reception of this deviation. Moreover, the extent to which it performs stylistic functions that may appear or be implied and inferred. Perhaps the most prominent achievement of this type of deviation is highlighting the uniqueness of the Quranic text. In addition, its monopolization of some metaphorical styles and figurative expressions to achieve absolute excellence in that linguistic fabric, and confirmed inimitability in everything it contains and encompasses.

Keywords:

Quranic deviation, aesthetic reception, metaphor, metonymy, Surat El'Kahf .

الانزياح القرآني: بين جمالية التلقي والوظائف الأسلوبية للمجاز

والاستعارة في سورة الكهف.

د. لويذة حوفاف ^{*1}

¹: جامعة محمد بوضياف المسيلة، (الجزائر)، santalouiza@yahoo.fr

الملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى إبراز مواطن التميز والتفرد في واحد من الجوانب الفنية للقرآن الكريم، والذي يعدّ من الخصائص والسمات الأسلوبية في كلام الله تعالى، حيث يتعلّق الأمر بالانزياح وبالتحديد واحد من أنواع الانزياح وهو انزياح المعنى، متمثلاً في الاستعارة والمجاز، مروراً بالإشارة إلى انزياح الصوت وانزياح اللفظ وكذا انزياح النظم أو التركيب، وصولاً إلى موضوع الدراسة وهو جمالية تلقي هذا الانزياح، ومدى تأديته لوظائف أسلوبية قد تظهر وقد تبطن فيتم استنتاجها، ولعلّ أبرز ما يحققه هذا النوع من الانزياح هو إبراز فُرادة النص القرآني واحتكاره لبعض الأساليب المجازية والعبارات المستعارة، ليحقق التميّز المطلق في ذلك النسيج اللغوي، والإعجاز المؤكّد في كل ما جاء به وفيه.

الكلمات المفتاحية:

الانزياح القرآني، جمالية التلقي، المجاز، الاستعارة، سورة الكهف.

1- مقدمة:

نجد أن مصطلح التلقي يندرج ضمن مباحث نظرية القراءة والتلقي، وله علاقة مباشرة بعنصر التأثير أي تأثير النص على القارئ، بما أنه القطب الثالث في عملية القراءة بعد النص والكاتب، وإذا تحدثنا عن جانب التأثير فإن هذا يقودنا إلى الحديث عن الأبعاد النفسية للنص في نفس القارئ، ثم تأثير التلقي نفسه على القارئ ذاته.

إن دراسة جمالية التلقي في مقابل فنية وإبداع النص لا يخلو من التذوق والانطباع، كما لا يخلو من النظر إلى ما يحيط بالظاهرة الأدبية أو الفنية، وسيزداد الأمر حذراً وصعوبة واحتراساً كلما تعلّق الأمر بالقرآن الكريم، فالمبدع هو الخلق عز شأنه ولا بدّ أن كلامه ليس كأي كلام، خاصة ونحن أمام موضوع الانزياح، الذي يبدو جلياً في النص القرآني الكريم، بمختلف أنواعه إذ يمكن القول إن القرآن بأكمله وبرمته انزياح كلي وجماعي لمختلف الجوانب والمستويات اللغوية والدلالية المعنوية.

2-جمالية التلقي:

إن مفهوم جمالية التلقي ظلّ رهين هذه الثنائية: تلقي/ تأثير، لأن تلقي أي نص لا يكون إلا بتأثير معين للنص على القارئ، فالتلقي هو «تفاعل دينامي بين معطيات النص والخطاطة الذهنية للمتلقي بما فيها رغباته وردود أفعاله». (حميد لحميداني، مستويات التلقي، 1992، ص 101). فكلما تفاعل في هذا المفهوم تؤدي إلى ذلك التداخل بين التلقي والتأثير لينفرد كل مصطلح بنظرية مستقلة.

ونظرية التلقي عند "ياوس" قائمة على فهم وإدراك الظاهرة الأدبية المتمثلة في النص مهما كان نوعه بالنظر إلى أبعاده الوظيفية والجمالية والتاريخية من خلال سيرورة واستمرار تلقيه شكلاً موضوعياً ملموساً. (ينظر: عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة، 2007، ص 162)

فالفهم مرتبط بما يتسلح به القارئ من معارف وأدوات تحليلية، أما الوقع الجمالي فيتوقف على ما يتوقعه هذا القارئ من النص أو من الحدث داخل النص أو الشخصية... إلخ، مما يقودنا إلى ارتباط جمالية التلقي بأفق الانتظار لدى المتلقي بالدرجة الأولى، ف"ياوس" يربط «القيمة الجمالية للعمل الأدبي الجديد بدرجة "انزياحه الجمالي" عن أفق الانتظار المعهود، أي بمدى تعطيله للتجربة السابقة وتجاوزه لها... وبعبارة أخرى فإن القيمة الجمالية للعمل الأدبي الجديد تكون أكبر كلما كان "تغير الأفق" السائد ضرورة ملحة يتطلبها استقبال هذا العمل وفهمه، وعلى العكس من ذلك فكلاً تضاءلت "المسافة الجمالية" ولم يقتض العمل الأدبي الجديد أي تغيير في الأفق بل استجاب تماماً للانتظار المألوف والمستقر». (المرجع

نفسه، 2007 ص ص 166، 167) من هنا نعرف ان لأفق الانتظار حدّين هما الاستجابة او التخييب، فكلمًا نجح النص في تخييب أفق انتظار المتلقي زادت جمالية النص وبالتالي جمالية التلقي ومسافته لديه.

3-الانزياح:

الانزياح في لسان العرب هو الابتعاد، يقول ابن منظور: «نَزَحَ الشَّيْءُ يَنْزَحُ نَزْحًا وَنُزُوحًا: بَعُدَ... ونزحت الدار فهي تنزح نزوحًا إذا بعدت». (ابن منظور، لسان العرب، مجلد 2، د ت، ص 614)

كما جاء في القاموس المحيط المعنى نفسه لمادة (نزع). (الفيروز أبادي، القاموس المحيط، 2005، ص 244) ويعد الانزياح من الخصائص والأحداث الأسلوبية التي تميز النص وتجعل فيه شيئًا من الغرابة اللفظية والمعنوية، لكنها ذات سمة جمالية لها قيمتها في تقدير دور المرسل كما لها أثرها في ذهن المتلقي، فانزياح اللفظة أو العبارة -مبدئيًا- هو ابتعادها عن المعنى الموضوع له أصلا مما يحدث عسفا متعمداً في فعل القراءة، وطولا في المسافة الجمالية ناتجا عن خيبة أفق الانتظار.

فأي خروج عن المؤلف في اللغة يعدّ انزياحا، وأية معارضة للمتعارف عليه من اللّغة في أصواتها وتراكيبها ودلالاتها تعدّ انزياحا نظرا إلى أن «الأسلوبيين يقسمون اللغة إلى مستويين:
- المستوى العادي: ويتجلى في هيمنة الوظيفة الإبداعية على أساليب الخطاب.

-المستوى الإبداعي: وهو الذي يخترق الاستعمال المؤلف للغة، وينتهك صيغ الأساليب الجاهزة، ويهدف من خلال ذلك إلى شحن الخطاب بطاقات أسلوبية وجمالية تُحدث تأثيرا خاصا بالمتلقي». (نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب دراسة في النقد العربي الحديث، ج1، 2010، ص 198)

إن هذا الاختراق أو الانتهاك الذي يحدث في الفعل الكلامي ليس إلا انحرافا عن معيار تقعيدي نمطي، إلى نمط آخر أو صياغة مختلفة، فإذا كان النحو يراعى القاعدة والأداء المثالي للغة، فإن البلاغة تدرس انتهاك هذه المثالية، (ينظر: محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، 1994، ص 269).

والعدول عن المثالية في التعبير الفني الذي يقفز على التعبير العادي وينحرف عنه، فإذا كان النحو مجالا للقيود من خلال ضبط اللغة بقواعد دقيقة فإن الأسلوبية مجال الحريات (عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، د ت، ص 56).

من هنا تتأصل فكرة الانزياح وتتموقع في اللغة بين الاستعمال المثالي المعياري والاستعمال الفني والإبداعي، وبين هذا وذاك تبرز هذه الظاهرة في اللغة العربية بوصفها مبحثا من المباحث الأسلوبية التي تهدف إلى بيان ودراسة أوجه التميز في أساليب اللغة الأدبية المستعملة.

4-الانزياح القرآني:

نصل إلى لغة النص القرآني الكريم، الذي يعد في حد ذاته انزياحا شاملا وكليا ليس من الناحية الشكلية فحسب وإنما حتى من ناحية المضامين والدلالات والمعاني؛ ذلك أنه عدل عن طرائق العرب في التعبير من جهة، وباين كل الأنواع الأدبية الشائعة آنذاك من جهة أخرى خاصة الشعر كونه ديوان العرب في تلك الحقبة، حتى إن المشركين اتهموا الرسول صلى الله عليه وسلم بالشعر لكن الله تعالى يدحض عنه هذا بالحجة الدامغة في قوله: **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (69)**. (سورة يس، الآية: 69).

والمقصود من قولنا انزياحا عاما وكليا وشاملا هو خروج النص القرآني عن المعروف والمألوف صوتيا وصرفيا ونحويا ودلاليا، فلما عُرض كلام الله تعالى على عرب قريش في بداية الدعوة «رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جملة ألقان لغوية رائعة، كأنها لا تتلافها وتتاسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها فلم يفقهوا هذا المعنى، وأنه أمر لا قبل لهم به، وكان ذلك أبين في عجزهم؛ حتى إن من عارضه منهم كمسيلمة جنح في خرافاته إلى ما حسبه نظما موسيقيا أو بابا منه». (مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، 2003، ص 176).

فالقرآن الكريم كلام لا يخلو من الإيقاعات الموسيقية والأصوات الرنانة دون أن يكون شعرا أو موسيقى، ذلك أن الشعر فيه الجيد والريء والحسن والسيء، وموسيقاه تنبعث من أوزانه ورويه ووحدة بناء القصيدة، كذلك القطعة الموسيقية قد تقع في النفس موقعا لطيفا أو العكس، أما من كان بإزاء القرآن الكريم فإنه يحس أنه في أجواء خلابة من لحن متجدد متنوع، يكون فيه الانتقال بين الأسباب والأوتاد والفواصل، فيأخذه بتأثيره ويتملك قلبه دون ملل أو سأم، بل قد يطلب مزيدا منه. (ينظر: محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، 1997، ص 131).

أما فيما يخص «اللفظة المفردة فيجب أن تكون كريمة متخيرة في جنسها كما يجب أن يكون اختيارها معجميا يناسب موقعها في التركيب مع مراعاة أثرها في نفس المتلقي». (عز الدين عماري، مقارنة تأصيلية لقضايا أسلوبية في البلاغة العربية، ديسمبر 2019، ص 53).

وقد نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، بألفاظ عربية فصيحة، اكتسبت تميزا وسحرا خاصين في هذا النص المعجز، رغم وجودها قبله وحديث العرب بها قبل نزوله، «فكلماته فطرية موحاة من الله تعالى لآدم عليه السلام، قبل هبوطه إلى الأرض... وهبط بها إلى الأرض، حيث حافظت على هذه الكلمات أمة أمية إلى أن نزل القرآن الكريم مصوغا من هذه المفردات». (عدنان الرفاعي، المعجزة الكبرى معجزة إحدى الكبر، 2006، ص 422).

فالقرآن الكريم جاء بألفاظ معروفة عند العرب سابقا لكن كيفية صياغتها وتركيبها في النص القرآني مجهولة بالنسبة إليهم، لأنهم وقفوا أمام البنية اللغوية المتكاملة لكلام الله تعالى كأنهم يسمعون العربية لأول مرة رغم قدم عهدهم بأساليبها.

وفيما يخص النظم القرآني ومما توصل إليه عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز فإن الجمال ليس في اللفظ ولا في المعنى وإنما هو في نظم الكلام أي الأسلوب. (ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، 2004، ص 47).

كما نجد أنّ النص القرآني كتلة متكاملة من سبك الألفاظ والجمل، وروعة المعاني وقصدها، دون نسيان ما تنقله جملة وعباراته من شحنات عاطفية تؤثر في النفس وميولها، وتملؤها حسنا وانبهارا بجمال الصور وعذوبة الأصوات. فالقرآن الكريم شكّل انقلابة كبرى في حياة العرب الأدبية واللغوية والفنية، وانزاح عن مفاهيمهم وقدراتهم في مجال الإيقاع والكلمات المفردة والتراكيب وما يعتورها من ظواهر كالتقديم والتأخير والحذف والتكرار... لكنّ ما يعيننا بالدراسة هنا هو الانزياح في المعنى أي انحراف التركيب عن معناه المتوقع من نظمه، ليدل على معنى آخر يُستدل عليه بقرينة أو علاقة ما.

وفي إطار الحديث عن المألوف وغير المألوف في اللغة يمكن اعتبار الحقيقة كلاما مألوفًا والخروج عنها كلاما غير مألوف، وقد نال هذان المبحثان نصيبا كافيا من الدراسة والبحث لدى البلاغيين العرب، فالمعروف أنه في اللغة لا بدّ «أن يكون لكل دال مدلول واحد ولكل مدلول دال واحد، غير أنّ جدلية الاستعمال تُرضخ عناصر اللغة إلى تفاعل عضوي بموجبه تنزاح الألفاظ تبعا لسياقاتها في الاستعمال عن معانيها الوضعية فضلا عما تدخله القنوات البلاغية من مجازات ليست هي في منظور اللغوي إلا انحرافات عن المعاني الوضعية الأولى، وجملة ما ينتج عن ذلك أن أيّ دال في لغة ما لا بدّ أن تتعدّد مدلولاته من سياق إلى آخر». (عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص 58).

وانزياح اللفظ أو التركيب عن معناه لا يكون إلا ضمن نسيج لغوي تتفاعل فيه الدوال ومدلولاتها مع السياق المناسب لها، على أن الحقيقة «هي كل كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضح وقوعا لا تستند فيه إلى غيره... ويحدون المجاز هكذا: كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضح لملاحظة بين الثاني والأول». (السكاكي، مفتاح العلوم، 2000، ص 361).

فيسلم المتلقي بأن الصورة الذهنية للدال ليست تلك الحقيقية وإنما تجاوزت الحقيقة إلى المجاز والخيال.

5- المجاز والاستعارة:

آثرنا دمج الجانب النظري مع التطبيقي في هذه الدراسة، وقد حصرناها في انزياحات سورة الكهف نظرا إلى توفرها على عدد مميز من الاستعارات والمجازات، واعتبارها من الخصائص الأسلوبية البلاغية في هذه السورة.

أ- المجاز:

نجد العديد من المجازات في سورة الكهف بمختلف أنواعها: المرسلة والعقلية واللغوية، غير أننا سننقد عنصرا خاصا بالاستعارة فيما بعد.

فإذا كان معنى الأسلوب ملخصا في مقدار ما فيه من انزياحات بمعدل أو متوسط معين، بها تقاس درجة الكثافة الشعرية المتمثلة في المجاز والصور الأخرى، (ينظر: بشرى موسى صالح، 2001، ص 117). فإن القرآن الكريم يعدّ انزياحا نصيا ولغويا وبلاغيا كليا عن كافة النصوص وفنون الكلام السائدة عند العرب قبل نزوله، لكن في المقابل يمكن التنويه بعدد من الانزياحات الجزئية أي الواردة في سورة الكهف متمثلة في بعض المجازات المرسلة، منها قوله تعالى: **وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (4) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (5)**. (سورة الكهف، الآيتان: 4، 5). فالمجاز واقع في كلمة: كلمة التي عبر بها الله سبحانه وتعالى عن خطاب المشركين المتضمن كفرهم وشركهم بالله **قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا**، وفي هذا يقول الزمخشري: «فإن قلت: إلام يرجع الضمير في "كبرت" قلت: إلى قولهم: اتخذ الله ولدا أن الله تعالى استعمل الجزء (كلمة) وأراد به الكلّ (عبارة الكفر كاملة)، وهذا مجاز مرسل علاقته الجزئية.

وفي قوله تعالى: **وَتَحْسِبُهُمْ أَيْقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ^ط وَكُنُفُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلَمْتُمْ مِنْهُمْ رُعْبًا (18)**. (سورة الكهف، الآية: 18) يعرض الله جلّ وعلا مشهدا واقعا عن الفتية الذين طالت مدة نومهم في كنف الله ورعايته، والذين صار منظرهم مخيفا للرائي، فعبر عنه سبحانه وتعالى بلفظ الامتلاء، وهنا المقصود هو امتلاء القلب أي الجزء من الإنسان وليس الإنسان كاملا، فعلاقة المجاز كلية أريد بها الجزء فقط، «ورعبا: بالتخفيف والتثقيل وهو الخوف الذي يربع الصدر أي يملؤه وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة». (الزمخشري، تفسير الكشاف، 2009، ص 614).

وهذا تأكيد على أن المراد هو الجزء الذي يشعر بالخوف وهو الصدر أو القلب وليس الجسم كاملا. وفي قوله تعالى: **وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (59)** (سورة الكهف، الآية: 59). تتزاح كلمة القرى لتدلّ على أهل القرى، والمراد من المعنى هنا هو: وتلك القرى أهلها أهلكناهم، فذكر المكان وأريد به من يقطن به، «أي تلك هي أخبار الأمم السالفة والقرون الخالية كقوم هود وصالح ولوط وشعيب أهلكناهم حين ظلموا».

(محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ج 2، د ت، ص 181)

هذه الانزياحات ذائبة في ثنايا النص يكاد المتلقي لا يشعر بها إلا بعد التدبّر والتمعن لأنها غير مصطنعة بل تلقائية، يمازج الله بها التعابير والوقائع الحقيقية، وهذا هو الإعجاز نفسه: أن يصبح الذوق متعودا على الجمال والبريق الذي يراه ويتلمسه ويستشعره في كل مكان وعند كل كلمة، دون الحاجة إلى تفسيره أو سبر أغواره، وإنما يكفي أنه نص

جميل ذو أسلوب أصيل لم يسبقه إلى هذا الرنق نص، ويستحيل أن يضاهيه أو يشابهه نص آخر من النصوص البشرية.

وفي قوله تعالى: **كُلَّتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (33)** (سورة الكهف، الآية: 33) إسناداً كامل: "كلتا الجنتين آتت أكلها"، وهو مجاز عقلي أسند فيه الفعل إلى غير فاعله الحقيقي، لكننا بالعقل ندرك أن الفاعل المقصود هو الأشجار في حين الفاعل المجازي هو الجنتان، فيكون بهذا المجاز العقلي هو «الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه، لضرب من التأويل إفادة للخلاف لا بوساطة وضع كقولك: أنبت الربيع البقل، وشفى الطبيب المريض، وكسا الخليفة الكعبة وهزم الأمير الجند، وبنى الوزير القصر...». (السكاكي، مفتاح العلوم، 2000، ص 393)

والظاهرة المجازية نفسها تبدو في قوله تعالى: **وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا** وكأنّ الجنتين قد أثمرتا فمنحتنا صاحبهما ما كان ينتظره من خيرات، كونه يعتبره حقاً له، فإذا لم تأتيا أكلهما على هيئة ما يريد فكأنّهما تحرمانه ذلك الحق، فاستعير الظلم لإقلال الإغلال واستعير نفيه للوفاء بحق الإثمارة. (ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 15، 1984، ص 318).

وفي هذا الموضوع الثاني أجرينا المجاز مجرى المجاز العقلي قياساً على المجاز في الموضوع الأول. وفي قوله تعالى: **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103)** (سورة الكهف، الآيتان: 103، 104). فقوله تعالى: **ضَلَّ سَعْيُهُمْ** بمعنى ضاع وبطل عملهم، (الزمخشري، تفسير الكشاف، 2009، ص 632) وإنما الضلال للإنسان الذي يعمل سوءاً فيقال عنه: "ضال"، والسعي أيضاً من صفات العباد لذلك الضلال للعبد المسيء «لأنّ الكفر لا تتفع معه طاعة». (محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ج 2، ص 189)

من خلال الأساليب القرآنية السابقة نرى تجسيدا لقاعدة الخروج عن المألوف والعادي إلى غير المألوف واللاعادي، لكن المميز في الأمر أن هذا النص القرآني سابق بقرون لهذه الدراسات التي تتناول مفاهيمه وعناصره الإعجازية، وبهذا نرى استعمال الدوال لغير مدلولاتها وبالتالي كسر المعيار في استعمال اللغة، وبهذا فإنّ «الانزياح يعدم الوظيفة المرجعية للدوال ويحدث في المتلقي خيبة انتظار وقد عبّر "ريفاتير" عن ذلك بالمفاجأة». (نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، 2010، ص 200)

فيتمتع بهذا قصد المتكلم المعنى المباشر والحقيقي للخطاب، وفي المقابل يكرّس الأسلوب الفني واللغة المتعالية عن الواقع، فالمجاز «يتميز بخاصية انزلاق الإشارة بالتجاوز السياقي فمن الطبيعي أن يعتمد تأثيره الأسلوبي على هذا الانزلاق ويمضي في اتجاهه، وبينما لا يقوى انزلاق إشاري واحد على أن يحدث سوى انطباع يسير لا يكاد المتلقي يشعر

به فإن تتابع هذه الانزلاقات ووقوعها في نفس الاتجاه لا بدّ أن يحدث حركة تؤدي بدورها إلى وسم النص من خلال الكتابة المجازية بسمة خاصة مميزة في رؤية الواقع». (صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، 1998، ص 300)

ومن الطبيعي أن يأخذ التعبير منحى مختلفا عن التعبير العادي المباشر، ويصبح سمة أسلوبية في الخطاب القرآني، ينفرد ببعض تراكيبه المجازية التي تتألف من لغة مألوفة لكن الطريقة غير مألوفة، فالفعل اللغوي موجود والكيف معجز والخوض فيه مجرد مغامرة.

فالقائمة الأسلوبية للمجاز تكمن في «أنه يكمل الوظيفة الإشاري العادية للغة في نفس الوقت الذي يبرز فيه الجوهر الشكلي للرسالة، مضيئا إلى تسمية الواقع الموصوف بيانا عن الشكل الخاص الذي يتصور به المتحدث هذا الواقع؛ أي أن المجاز المرسل يعبر عن طريقة رؤية الأشياء والإحساس بها فهو لا يبدأ [إذن] بالعملية اللغوية بل يسبقها ويكيّفها». (المرجع نفسه، ص 295)

فأثر المجاز يكمن في سمته الانزياحية ودلالته على القصد، لكن بكلمة أو إسناد يتخلله انزلاق أي انحراف وخروج عن الطبيعة والمألوف.

ب- الاستعارة:

تكثر الاستعارة في الأسلوب القرآني كونها مظهرا أسلوبيا يبرز جمالية اللغة إلى جانب تعبيرها عن المعنى المراد بطريقة فنية، والاستعارة هي «أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر، مدّعا دخول المشبه في جنس المشبه به، دالا على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به كما تقول في الحمام: أسد وأنت تريد به الشجاع مدّعا أنه من جنس الأسود، فتثبت للشجاع ما يخص المشبه به». (السكاكي، مفتاح العلوم، 2000، ص 369) فالشجاعة حقيقة مثبتة للرجل لكنّ التعبير عنها كان تعبيرا غير مباشر فيه شيء من الخيال، وبهذا يزداد الخطاب علوًا عن الواقع، ويزداد تفاعل وتأثر المتلقي بما يتلقاه، في سياق مناسب ومقام ملائم، «فالوظيفة الإشارية التي تحيل إلى السياق وإلى الواقع الخارجي للمرسل والمرسل إليه تخف وطأتها عندما تتجاوز التعبير المباشر إلى التعبير الاستعاري». (المصدر نفسه، ص 307)

فالاستعارة من حيث الوظيفة تلعب دورا تصويريا في الذهن بحيث ترتبط دلالة الدال بما يوحي إليه من صور ذهنية عن الواقع لكن عبر قناة الخيال، لذا تدخل في دائرة المجاز «وإنما الفرق أن المجاز أعم من حيث أن كلّ استعارة مجاز وليس كلّ مجاز استعارة». (عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، 2004، ص 462)

كما أن الفرق يكمن في العلاقات الموجودة في كل نوع، ففي الاستعارة العلاقة واضحة وهي التشبيه، بينما في المجاز تتعدّد العلاقات حسب اللفظ الذي وقع فيه، غير أنه «يمكن التسليم بحظوة الاستعارة وتريعها على عرش فنون

البيان دراسة وتمحيصا آخذة حيزا كبيرا قديما وحديثا، ومرد هذا الاهتمام ما لها من أهمية في عملية الإبداع والخلق». (رضا بن صافية، عباس بن يحيى، تلقي الصولي والآمدي للاستعارة عند أبي تمام من خلال أفق التوقع، 2022، ص 329)

ومن جهة أخرى تساهم الاستعارة في تشكيل الصورة ليست فقط المتخيلة في ذهن المتلقي وإنما أيضا تلك التي تتعلق بتعانق المفردات وتجاوزها رغم التباعد الذي بينها.

• أمثلة لاستعارات سورة الكهف:

وردت الاستعارة في سورة الكهف ضمن ما ورد فيها من أسرار وفنون البيان اللغوي والبلاغي، ليضاف إلى سحر كلام الله سحر آخر، وإلى استحوذه على الأساليب الفنية المتميزة خصائص أسلوبية لا توجد في غيره، لتتعم بإعجازه وفرادته دون سواه.

ففي قوله تعالى: **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (1)** (سورة الكهف، الآية: 1) فالشاهد في هذه الآية موجود في كلمة **عِوَجًا** التي نكرها الله تعالى في معرض الحديث عن القرآن الكريم لينفي عنه أي انحراف أو خطأ أو اعوجاج، «والعِوَجُ -بكسر العين وفتحها ويفتح الواو- حقيقة: انحراف جسم ما عن الشكل المستقيم، فهو ضد الاستقامة، ويطلق مجازا على الانحراف عن الصواب والمعاني المقبولة المستحسنة...» (محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 15، 1984، ص 247)

فقد استعيرت كلمة "عوجا" هنا للدلالة على انتفاء الغلط واللغظ عن كلام الله تعالى، الذي شُبه بالشيء المادي المجسم الذي يمكن أن يبدو عليه الاعوجاج، في حين هو عبارة عن معان ورسائل يدركها الإنسان بقلبه وعقله وعواطفه وكل ما يتعلق بالنفس ودواخلها.

وفي قوله تعالى: **قَبِيْمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيْدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِيْنَ الَّذِيْنَ يَعْمَلُوْنَ الصَّالِحَاتِ اَنَّ لَهُمْ اَجْرًا حَسَنًا (2) مَا كُنْ فِيْهِ اَبَدًا (3)** (سورة الكهف، الآيتان: 2، 3) يذكر الله تعالى عباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات ويبشّروهم بأجر كبير يمكنون فيه لا يغادرونه، والمعروف أن المكوث يكون في الأماكن، لذا فقد شُبه الأجر بالمكان واستعيرت كلمة **ماكنين** للدلالة على دوام واستقرار حال المؤمنين السعيدة، ومنه فإن «المكث: الاستقرار في المكان، شبه ما لهم من اللذات والملائمات بالظرف الذي يستقر فيه حاله للدلالة على أنّ الأجر الحسن كالمحيط بهم لا يفارقهم طرفة عين». (محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 15، 1984، ص 250)

فقد يكون مستبعدا في العقل البشري أن يجعل علاقة مشابهة تجسد المعنوي في صورة المادي بهذه الطريقة الفريدة من نوعها، حتى لكأن هذه اللغة التي برع فيها جهابذة العرب، قد طرأ فيها تغيير في الاستعمال والخطاب وحتى في استعارة كلمة مكان أخرى.

أما في قول الله تعالى: **وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا (14)** (سورة الكهف، الآية: 14) فنص الشاهد هنا في قوله تعالى: **وربطنا على قلوبهم** إنما يُربط الشيء المادي لتثبيته أو منع إفلاته، فشبه ربط القلب بالإيمان بربط الشيء المحسوس بالحب، فهنا «الربط على القلب مستعار إلى تثبيت الإيمان وعدم التردد فيه، فلما شاع إطلاق القلب على الاعتقاد استعير الربط عليه للتثبيت على عقده». (محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 15، 1984، ص 272)

والربط فيه قوة وحزم، والله تعالى منح أولئك الفتية القوة بالصبر على هجر الأوطان والدنيا، والفرار بالدين إلى ذلك الكهف. (ينظر: الزمخشري، تفسير الكشاف، 2009، ص 614)

وفي موضع آخر يقول الله سبحانه: **فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77)** (سورة الكهف، الآية: 77) فهذه الآية الكريمة تنطق ببلاغة وحكمة هذا النظم المعجز الذي جعل للجدار إرادة وهو جماد لا حول له ولا قوة، لا يتحرك ولا يرى ولا يسمع، وهذا ما يحرك الصورة الذهنية للجدار لدى المتلقي «لأن الإرادة من صفات العقلاء وإسنادها إلى الجدار من لطيف الاستعارة وبلغ المجاز». (محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ج 2، ص 184)

فمثل هذه الاستعارة تشغل الذهن وتلهم النفس وتبرهن أكثر على أن الاستعارات القرآنية مبنية بناء خاصا بحيث لا يصيبها الابتذال؛ فهي مستمرة ومتجددة في كل عصر لأن الله تعالى اعتمد فيها على حقائق وثوابت كونية وطبيعية وبيولوجية لا يمكن تغييرها عبر الزمن، (ينظر: عطية سليمان أحمد، الاستعارة القرآنية في ضوء النظرية العرفانية، 2014، ص 140) وهذا لكون هذا النص القرآني الكريم صالحا لكل زمان ومكان.

وفي قول الله تعالى: **وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (99)** (سورة الكهف، الآية: 99) يتحدّد وجه الاستعارة في قوله تعالى: **بعضهم يومئذ يموج في بعض** فقد استعار كلمة **يموج** و«شبههم لكثرتهم وتداخل بعضهم في بعضهم بموج البحر المتلاطم». (محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ج 2، ص 191) ولا يخفى ما في هذه الصورة من دلالات على الاضطراب والتدافع والفوضى لكثرة العدد، فتتراءى تلك الجموع لمتخيّل المتلقّي في مشهد حي حركته كحركة الأمواج مداً وجزراً، علوا وانخفاضا، لتكتسب قدرة على الإقناع والإلهام بالإبداع في آن واحد، وبالإضافة إلى ذلك فإن «الاستعارة تحقّق عامل الاقتصاد اللغوي بما تتيح من صياغة مركزة

لعناصر الدلالة المتعلقة بالمعنى العادي لكلمة معينة، وتحقق تلاؤمه مع المعنى الجديد الذي يفرضه السياق، والاختيار الذي يتم بين عناصر هذه الدلالة يجعل الاستعارة وسيلة لتخفف القول من بعض العناصر غير الضرورية». (صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، 1998، ص 303)

وما الاقتصاد اللغوي في الكلام سوى إيجازه وتكثيف دلالاته، وهذا من آثار الانزياح في النص القرآني ومن أوجه إعجازه، ونرى أن المتلقي يحصل على المعنى ودلالة العبارة أو الجملة المنزاحة اعتماداً على قرائن لغوية أو اجتماعية يحكمها السياق كما «يمكننا تصوّر كل هذه الأشياء معتمدين على ثقافتنا وتجاربنا وإدراكنا وطبيعتنا النفسية». (عطية سليمان أحمد، الاستعارة القرآنية في ضوء النظرية العرفانية، 2014، ص 140).

وبناءً عليه يمكن القول إن القرآن الكريم ليس حياة للروح والعقل والنفس فحسب وإنما هو حياة للغة والأساليب، التي ظلت منذ قرون مصدر إلهام للعرب ولغيرهم نظراً إلى مجاورتها وملاستها للحياة بمختلف جوانبها وبأدق تفاصيلها.

6- خاتمة:

ومجمل القول فيما سبق من أشكال الانزياح القرآني في المعنى أن المعنى نفسه في النص القرآني بيّن وبلغ إن كان مباشراً أو غير مباشر، فلا نرى ألفاظه إلا وهي تسابق معانيه، ولكن المعاني تحصل وتقع في النفس مؤثرة فيها قبل تمام البناء اللغوي اللفظي، في اتساق وارتباط وانسجام معجز يوازن بين المنطق والوجدان، بين الحقيقة والخيال وبين المؤلف وغير المؤلف.

فكيف الحال والمبدع هو الله سبحانه وتعالى؟ والإبداع هو القرآن الكريم، الذي وضع كل شيء موضعه، وجعل لكل لفظ قيمته ولكل تركيب إشعاعه، وحتى الانزياح والانحراف عن المعنى لأداء المعنى نفسه الذي أراد الله سبحانه وتعالى تبليغه بالانحراف عنه، كل هذا كان لهدف آني في حقبة الرسول صلى الله وسلم، لكنه استمر إلى يومنا متجدداً بتجدد الزمن، فالأثر ثابت والإنسان بتحولاته وثقافته ودرجات استيعابه هو المتغير.

7- قائمة المصادر والمراجع:

أولاً. القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

ثانياً: التفاسير:

1- الزمخشري، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه: خليل مأمون شياح، ط 3، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1430 هـ / 2009 م.

2- محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ج 2.

3- محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، ج 15.

ثالثا. المعاجم:

4- جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، مجلد 2.

5- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط 8، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1426هـ / 2003م.

رابعا. الكتب:

6- بشرى موسى صالح، نظرية التلقي أصول وتطبيقات، ط 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2001.

7- صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئ وإجراءاته، ط 1، دار الشروق، القاهرة، 1419هـ / 1998م.

8- عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ط 3، الدار العربية للكتاب.

9- عدنان الرفاعي، المعجزة الكبرى معجزة إحدى الكبر، ط 1، دار الخير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 2006م.

10- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، ط 5، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 2004م.

11- عطية سليمان أحمد، الاستعارة القرآنية في ضوء النظرية العرفانية، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، مصر، 2014.

12- محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، اعتنى به وخرج أحاديثه: عبد الحميد الداخني، ط 1، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1417هـ / 1997.

13- محمد عبد المطالب، البلاغة والأسلوبية، ط 1، الشركة المصرية العالمية للنشر لونغمان، مصر، 1994.

14- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، راجعه واعتنى به: درويش الجودي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، 1424هـ / 2003م.

15- نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب دراسة في النقد العربي الحديث، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م، ج1.

16- يوسف بن محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق عبد الحميد هندراوي، ط 1، دار الكتب العلمي، بيروت، لبنان، 1420هـ / 2000م.

خامسا. المقالات:

17- حميد لحميداني، مستويات التلقي، القصة القصيرة نموذجا، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، عدد 6، 1992.

18- رضا بن صافية، عباس بن يحيى، تلقي الصولي والآمدي للاستعارة عند أبي تمام من خلال أفق التوقع، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، المجلد: 06، العدد: 02، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، 2022.

19- عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة، ط 01، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، 2007.

20- عز الدين عماري، مقارنة تأصيلية لقضايا أسلوبية في البلاغة العربية، مجلة المقري للدراسات اللغوية النظرية والتطبيقية، المجلد: 03، العدد: 05، جامعة المسيلة، الجزائر، ديسمبر 2019.